مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

الطبيعة مرجعاً شعريا عند الشاعر العراقي محمد سعيد الحبوبي

أ.د. كامل عبد ربه حمدان الجبوري
م.م. داخل دمان ساهي الوطيفي

الجمهورية العراقية / جامعة القادسية / كلية التربية / قسم اللغة العربية

الملخص

حظيت الطبيعة على مساحة واسعة من شعر الشاعر العراقي محمد سعيد الحبوبي مما جعلنا نفترض أنه تأثر بالحركة الرومانسية وهي في بداية انتشارها في الوطن العربي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد فرض علينا شيوع تقسيم الطبيعة على حية وجامدة عن أغلب الدارسين قسمنا هذا البحث على محورين رئيسين، الأول هو الطبيعة الحية مرجعاً شعرياً عند الشاعر العراقي محمد سعيد الحبوبي والثاني هو الطبيعة الجامدة عند الشاعر.

Nature Is a Poetic Reference for The Iraqi Poet Mohammed Saeed Al-Haboubi

ABSTRACT

Nature has received a large area of the poetry of the Iraqi poet Mohammed Said Haboubi, which made us assume that he was influenced by the romantic movement is at the beginning of its spread in the Arab world at the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century, has imposed on us the prevalence of the division of nature on the living and rigid for most of the students Two main axes, the first is the living nature of the poetic reference of the Iraqi poet Mohammed Said Haboubi and the second is the rigid nature of the poet.

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

المحور الأول: الطبيعية الحية مرجعاً شعرياً عند الحبوبي

إن أهم ما نهل منه الحبوبي من عناصر الطبيعة الحية هو الجمل والغزال والحمامة والأفعى والعقرب والخيل والأسد. وأول ما نقف عليه من هذه العناصر الطبيعية الحية هو الجمال لهيمنة ورودها في ديوان الشاعر، فهو يرجع إلى الناقة في مواضع أولها عندما يصف الناقة ويقارنها بأنواعها، ومن ذلك قوله من (المتقارب):[1]

فقل لمجاريهِ : قف واتئدْ فحوزُ الرهانِ إلى من سبقْ
وكم أوفتِ البزلُ في حلبـــة وما أدركتْ شأوهُنّ الحُقــقْ

هذان البيتان يعلمان المتلقي أن السيد الحبوبي على دراية تامة بصفات ومناقب الممدوح لذلك خاطب خصم الممدوح بفعلي الأمر (قف) و (اتئد) لأنه لا يجاري من هو أعلى منه همة وأسمى منه مكانة، والرهان هو الفيصل، ولأن ممدوح الشاعر هو من كسب الرهان بأفعاله؛ فلا يحق لمنافسه أن يتعالى عليه، ولكي يقرب الصورة شبه ممدوحه بالبُزل وهي الجمال التي بلغت أوجها بالقوة والخبرة، وشبه خصم ممدوحه بالحقق وهي الجمال الصغيرة التي لم تبلغ الرابعة من عمرها، فهو بلا خبرة وضعيف من حيث القوة. أما الموضع الثاني الغالب في هذه الموضوعة والذي يرجع فيه الحبوبي إلى الجمال، فذلك عندما يتحدث عن الشوق والحنين لما عُرف عن الإبل من حنين، ومن ذلك قوله من (الكامل):[2]

تبدي الحنينَ وراءهم ولهاً كالنيبِ عنّ لقلبِها الوطنُ

إن صورة حنين الإبل قديمة قدم الشعر العربي، يرجع إليها الشعراء عندما يصفون حنينهم إلى أحبتهم أو ديارهم، واستخدام الحبوبي لهذه الصفة دليل واضح لتأثره بمن سبقه من الشعراء. ويتضمن هذا المعنى ألم الفراق عن الوطن من خلال تقييد الشاعر لسبب حنين الإبل وهو تذكر الوطن، هذا على الرغم من أن الشاعر قد وصف (الحنين) في موضع رحلة الحبيب وابتعاده، مما أثار الحزن لديه مشبهاً حنينه بحنين الإبل إلى أوطانها، فقد اعتاد على رفقتها ومخاطبتها وكأنها إنسان، فهو يعبر عن شوقه من خلال مخاطبة الناقة في كثير من شعره، ومن ذلك نقرأ قوله من (الخفيف):[3]

يا لظعنٍ به النياقُ تَهادى نهنهي السيرَ ساعةً يا نياقُ

تعد الرحلة من صور البناء في القصيدة العربية قديماً، والرجوع إليها يعطي دلالة لتأثر الشاعر بمن سبقه، والحبوبي من أولئك الشعراء الذي دأبوا على النهج القديم. ومراحل التجديد لديه لا تلغي ذلك التأثر "فالشاعر مهما كانت موهبته عظيمة لا بد له من تقليد سابقيه في قواعد الفن الأدبي، وإذا كانت قدرة الشاعر على الابتكار تجد صورتها في لغته ومعانيه واستعاراته، فمن الصعب أن نجد شاعراً مبتكراً في قواعد البناء الفني في القصيدة، فالهيكل يكاد يكون موروثا لا يبتكره أحد".[4] وقد تمظهرت مرجعية الإبل في هذا البيت معبرة عن الاغتراب الجماعي، وكأن الشاعر يتحدث عن غربة الإنسان بشكل عام. ونستشف منه أن الحبوبي يرى أن الأحداث في الحياة تسير ببطؤ شديد لذلك نجده يستنكر هذا البطء بأسلوب يقترب من السخرية والتهكم، ويطالب عجلة الزمن أن تمضي أسرع مما هي عليه، وهذا يضمر نقداً للمجتمع والسياسة بشكل عام. ولكي يعبر عن رؤيته هذه لجأ إلى الإبل مفيداً من صفتين فيها، هما الحنين والسير بتمهل. ولم يكتف بذلك فقط، بل أحياناً يمزج بين نوعين من الحنين يكون حنين الإبل أولهما، ونجد ذلك في قوله من (الطويل):[5]

أحنّ إذا حنت لذي الأثلِ ناقتي وأصبو إذا ما الورقُ في الأيك تهتفُ

فلكي يؤكد شدة حنينه لجأ إلى صفة من صفات الإبل وأخرى من صفات الطيور تحط علي نوع من الشجر الضخم هو الأيك، فشدة حنينه تشبه حنين الناقة أما صوت الحنين الذي أطلقه فهو يشبه صوت الحمامة الشجي، وهو بذلك يضمر نسقاً حول عدم شعور الإنسان بالطمأنينة حتى إذا كان في أجمل مناطق الكون، لأنه بعيد عن وطنه وعمن أحب. وقوله (ناقتي) بالتحديد يدلل على أنه في حال غربة، فهو لم يصف حنين أية ناقة، وإنما ناقته هو، ثم أكد ذلك بالاتكاء على الحمام أيضاً، فالحمام يعد من الطيور التي رجع إليها أغلب الشعراء قديما وحديثاً، فهو "رمز السلام ، ورمز العشق وعنوان الرقة والألفة".[6] وللحمام أثر "بارز في حياة الإنسان عامة والشاعر على وجه الخصوص في الإطار الوجداني والعاطفي"،[7] فضلاً عن صوته الشجي الذي يثير حفيظة الشاعر ويستدعي ذكرياته وحنينه إلى أيامه الفائتة، ويعوضه عنها من خلال اتخاذ الشاعر الحمامة صديقاً، وفي هذا الصدد نقرأ قوله من (الكامل):[8]

أحمامةَ الوادي عداك جـــوى لو حل فرعك أحرقَ الفرعـــا
إني اتخذتُكِ لي منادمـــــة ولقد شربتِ ، فغردي سجعـــا

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

غالبا ما يتجه السيد الحبوبي إلى النداء في موضوعة الغزل والشكوى من ألم الفراق وما ينتج عنهما من أسى وحزن، فقد نادى حمامة الوادي بالهمزة الدالة على نداء القريب، مخبراً إياها أن الحزن وشدة الوجد والعشق قد جاوزتها، وقد جعلها نديماً له في الحزن والألم والشوق، طالباً منها أن تغرد بصوتها الشجي غناءً يبعث على الذكرى. إن مخاطبة الحيوان تدل فيما تدل عن نسق رفض مضمر، رفض للمجتمع، وسلوكه، فمن المفترض أن يكون النديم إنساناً، فالصورة التي رسمها الحبوبي ليس فيها استعارة يكون تأويلها أن هناك فتاة تشبه الحمامة، فحذف منها المشبه، إنما أراد القول إنه لم يألف المجتمع، لذلك لجأ إلى عناصر الطبيعة الحية، مثلما يفعل الرومانسيون، إذ إن الحقبة الزمنية التي عاشها الحبوبي في بواكير الرومانسية في العراق ربما جعلته يتأثر بأفكارهم في موضوعة اللجوء إلى الطبيعة. وقد تمظهرت مرجعيته إلى الطبيعة الحية في كثير من شعره، وفي سياق ذلك نقرأ له قطعة مفعمة بعناصر حية من ضمنها الحمام، وذلك في قوله من (الطويل):[9]

خليلي ليس الحبُ الا علاقـــةً تَعلّقَ في أحناءِ صدريَ داؤُهـــا
وحسبُ الفتى داءٌ إذا برحتْ بـه علاقةُ وجدٍ ليس يُلقى دواؤُهـــا
إذا هتف تحت الظلامِ حمائـــمٌ يذكرني قمريَّ (نجدٍ) غناؤُهـــا
فألوي عنانَ الشوقِ تلقاءَ أربـــعٍ بأكنافها ما أن تُراعَ ظباؤُهـــا
فبـــي أفتدي تلك الظِباءَ وكلَّ ذي حشا عَضّها الشوقُ الممضُ فداؤها

يتعرض الحبوبي في هذه القطعة إلى نوعين من العلاقة، علاقة إنسانية تؤدي إلى التعب والإرهاق، وإن كان يدعوها حباً، وعلاقة أخرى مع عناصر الطبيعة تؤطر المشهد وتضفي عليه بعداً كونياً عاماً، فمن خلال امتزاج تلك العناصر مع بعضها بما فيها الإنسان، تتحول الصورة إلى ملحمة يشترك بأدائها الإنسان والحيوان والزمان. فالحمامة تغني ويجاوبها القمري: ذلك "الطائر المشهور بحسن الصوت"[10] فيتحرك الشاعر في الليل فيُريعُ سيرُه ظباءَ المكان، في صورة ملحمية رائعة. وربما أشركَ الحبوبي إنساناً آخر معه في موقف مشابه، مثل قوله من (الطويل):[11]

أقول (لسعد) والحمائمُ هتـــــفٌ وأيدي المطايا ، بالأحبةِ تعنف
عداك الحجى إنْ كنتَ تعذلُ ذا الهوى مدامعُه من ذائبِ القلبِ تنطـف

نلاحظ أن موقف الإنسان من الحدث موقف سلبي في نظر الشاعر، فالصورة الشعرية المتحركة التي رسمها الحبوبي صورة تقترب من السرد الشعري مما يضفي عليها طابعاً قصصياً تبرز فيه شخصيات مساعدة ومعادية، فهو يعاتب سعد على عذله في حين يضع على هامش المشهد- لغوياً- صورة الحمائم وهي تهتف والمطايا وهي تسير بقوة، وفي ظل هذا الهامش يتهم الشاعر صاحبة بالجهل بسبب عذله للمحبين. لكن ما يمكن قوله، إن حقيقة مركز الصورة هو مخاطبة الطبيعة وما فيها من عناصر مساعدة على الحياة مادياً وجمالياً؛ فمساعدة المطايا مادية، وهتاف الحمام مساعدة جمالية.

أما حينما يريد الحبوبي التعبير عن الحب والجمال وهو يحاول تحدي الزمن باصطياد أوقات للفرح والحب، فنجده يلجأ إلى عنصر أخر من عناصر الطبيعة يتصف بهذه الصفات، ولعل أفضل من يمتلك هذه الصفات هو الغزال. لكنه حتى في لجوئه إلى هذه الصفات الحسنة فإنه لا ينسى الحديث عن الغربة النفسية مستغلاً أية فرصة لكي يظهر موضوعة الغربة في شعره. ونأخذ مثالاً على ذلك قوله في موشحة من (الرمل):[12]

يا غزالَ السفحِ من وادي (زرودْ)
كنْ كما شئتَ بوصلٍ أو صـــدودْ
سلفتْ من أهلِ (تيماءَ) العهودْ
لستُ أشكو لزمانٍ من نـــــواكْ ليدٍ بُلغتُهـا من زمنـــــــي

على الرغم من أن صورة الغزال في الشعر العربي مرتبطة بالغزل والمرأة، كونه رمزاً للحبيبة التي يشببها الشاعر بها أما لجمال عينيها أو لرشاقتها، فإننا نلاحظ أن روح الغزل تومض في هذه القطعة وتخبو، ثم تومض مرة أخرى، لكن المهيمن على النص، هو اللامبالاة ، فسواء كان هناك وصل أو صدود فالأمر سيان عند الشاعر، وهو لا يريد تغيير طبيعة الموصوف بالغزال. فنقض العهود أصبح مسألة معهودة، لذلك نجد الشاعر لا يشكو الفراق(النوى) وإنما يشكو زمنه الذي يجني عليه. ومن الملاحظ أيضا أن الحبوبي يضيف الغزال إلى منطقة ما، فمثلما أضافه إلى وادي زرود في تيماء، نجد في مكان آخر يضيفه إلى الكرخ، وذلك في قوله من (الرمل):[13]

يا غزالَ الكرخِ واوجدي عليـكْ كاد سرّي فيكَ أن يُنتهكـا
هذه الصهباءُ ، والكأسُ لديـكْ وغرامي في هواكَ احتنكـا

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

فاسقني كأساً وخذْ كأساً إليــكْ فلذيذُ العيشِ أن نشتركــا

عندما يرجع الحبوبي إلى الغزال بالرمز إلى المرأة يرجع معها إلى المكان، ففي الشاهد السابق نرى إنه ينادي غزالاً من (وادي زرود) وفي هذا المقطع ينادي (غزال الكرخ)، وهذا الأمر يشي بأن هناك نسقاً خفياً في عمق المشهد، إذ نرى وجود دعوة عامة للتآخي والسلم المجتمعي من خلال الاشتراك بالثروات، وقرينتنا على ذلك هي أن عجز البيت الثالث (فلذيذ العيش أن نشتركا) جاء مطلقاً عاماً غير محدد بالشاعر وحبيبته، علماً أن تحديد المكان (الكرخ) لا يكون محدداً جغرافياً إذا قرأنا ديوان الشاعر بوصفه نصاً يقول شيئاً، فخطاب الشاعر يدلنا على أن المكان متعدد فمرة في وادي زرود ومرة في الكرخ ومرة في (الخيف) كما نقرأ ذلك في قوله من (الرمل):[14]

ويا رشا (بالخيفِ) أصبحَ ربعُهُ لك اليوم في وسط الفؤاد ربوع

يبدو على البيت أن الحبوبي يرمز إلى (المرأة) الحبيبة من خلال منادتها بـ (الرشا) داعياً إياها إلى التربع في وسط قلبه والرعي به، لأنه يعتقد أنه مكانها الحقيقي لا بأرض الخيف، وإنما في قلبه، لكن البيت يضمر نسق الغربة، غربة الحبيب عن أرض الوطن، ويضمر دعوة للعيش معاً ويعرض أفضل ما لديه لتحقيق ذلك، وهو قلبه، فهي دعوة للاشتراك والطمأنينة. ومن الجدير بالذكر أن هذا البيت يذكرنا بقول الرضي:[15]

ياظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

إذ كلاهما يدعو من يحب إلى السكن في القلب. ويدعو إلى الاشتراك في العيش. أما إذا أراد الحبوبي تشبيه المرأة ليس إلا، فإنه يلجأ إلى أسلوب مختلف، فهو لا يستعمل النداء، ولا يضف الغزال إلى المكان، وإنما يكتفي بوصف شكلي لجمال الغزال الحقيقي، ومن ذلك قوله من (الكامل):[16]

والجيدُ جيدُ الظبي الا أنهُ فيه جمانُ مدامعي معقودُ

وعلى الرغم من تشبيه جيد حبيبته، بجيد ظبي، إلا أن الاختلاف فقط في انتظام مدامع الشاعر كعقد اللؤلؤ في ذلك الجيد. وقد تمظهرت مرجعية الغزال في قول الحبوبي من خلال صفة جسدية ينماز بها هذا الحيوان وهي ـ طول جيده ـ عن سائر الحيوان الأخرى التي تُشبه بها الحسناء عادة، لكن مفاتن جيد الظبي لا تمنع الشاعر من الشعور بالحزن على شيء ما في هذه الحياة، فقد رسم لنا صورة دموعه المتبلورة والمتحولة إلى حبات لؤلؤ منتظمة في عقد يزين جيد حبيبته.

وتماشياً مع الموقف من المجتمع في شعر الحبوبي تبدو الأنساق المضمرة التي يوحي بها شعره مهيمنة على طبيعة ذلك الشعر، فنجد الحبوبي يعبر عن موقفة من مساوئ المجتمع باللجوء على عناصر طبيعية حية تتصف بصفات سلبية تتشابه مع صفات إنسانية مرفوضة، ومن تلك العناصر، الأفعى. فعلى الرغم من أن طبيعة الأفعى دفاعية إلا أن اتصاف الإنسان بسلوكاتها يعد خروجاً عن الصفة الإنسانية، إلا إذا كان دفاعياً مثلها، إذ قد يلجأ الإنسان إلى ميكانيزمات تعينه على التخلص من المواقف الصعبة، لذلك يلجأ إلى ما يفعله الحيوان في تلك المواقف، فمن خلال رجوع الحبوبي إلى هذا الحيوان نكشف عن رؤية لطبيعة الحياة الإجتماعية والسلوكات التي ينبغي أن تُتبع، ومن تمثلات ذلك في شعره استدعاؤه لصفات الأفعى في قوله من (الرمل):[17]

عاشرِ الأقرانَ في خفضِ الجنـــاحُ
ذاكَ عن خلقٍ رضيٍّ ، وصـــــلاحْ
أنت ، في سلمٍ ، كمن خافَ الكفاحْ
فإذا نبّهــكَ الهـــــــولُ رآكْ أرقماً سابَ لهُ من مكمـــــــنِ

إن الوقوف على ما يضمره هذا المقطع من الموشحة يحيلنا إلى سلوكات اجتماعية وربما سياسية سيئة، إذ إن الإنسان بحاجة إلى أن يهيئ نفسه لاحتمالات صعبة مسبقاً، وتُعلمنا الموشحة أيضاً أن خفض الجناح والخلق الرضي والصلاح ربما يخفي خلفه وحشاً كاسراً، فهو مثل الأرقم: ذلك الحيوان القاتل المرقط بالسواد والبياض،[18] حتى أن لونه هذا يعبر عن الحالتين: خفض الجناح المتمثل بالأبيض والهيجان عند الاستفزاز المتمثل باللون الأسود، ولعل ذلك هو ما جعل الحبوبي يختاره للتمثيل بصفاته الشكلية، فالتمثيل بأشكال عناصر الطبيعة مهيمن في شعر الحبوبي، حتى أنه يقدم الشكل متناسياً السلوك في كثير من المواضع، ونأخذ استدعاءه لشكل العقرب مثالاً في هذا الصدد، إذ يتخذ الحبوبي من شكل ذيل العقرب مادة للرجوع إلى شكل سوالف الحبيبة، فيصف شعرها الملتوي قرب أذنها بذيل العقرب، ومن ذلك قوله من (البسيط):[19]

ما شاكَّ عقربُ صدغيها مقبلَها إلا ومن ريقها يُرقى بدرياق

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

إن تشبيه شَعر صدغي الحبيبة بالعقرب صورة قديمة في الشعر العربي، وقد قيل "صدغ معقرب بفتح الراء أي معطوف"،[20] لكن استعمال الحبوبي لهما فيه شيء من الزيادة، إذ حين يشكه ذيلُ عقربِ سوالفِ الحبيبة، يحظى مباشرة بالعلاج الشافي من ريقها. ولعل ما يضمره هذا البيت يشكل موقفاً ورؤية تجاه المرأة بشكل عام، فهي إن كانت سلبية في أحيان، فهي إيجابية في أحيان أيضاً، فلا يمكن الاستغناء عنها، فالذي يصاب بداء منها يجدها هي ذاتها العلاج. والجدير بالذكر أن الحبوبي كرر هذه الصورة في مواضع أخرى من ديوانه.[21] حتى أنه يخاطبها عندما يريد الحديث عن شجاعته وإقدامه وهو متكئ على عنصر من عناصر الطبيعة يدل على تلك الشجاعة وذلك الإقدام، ومثال على ذلك نقرأ ما رجع به الحبوبي إلى الخيل مخاطباً المرأة في قوله من (البسيط):[22]

سلي بيَ الخيلَ تنزو في شكائمها فما جهلتِ بهذا الحيّ من مضرِ

فهو يطلب منها أن تسأل عنه الخيل لتعرف مدى شجاعته ومدى معرفته بمسالك الحياة. وتعد الخيل رفيقة الفارس وعدته في وقت الحرب والسلم، ويدعو الحبوبي من خلال هذا البيت حبيبته أن تسأل الخيل المضطربة في لجامها عن أفعاله وشجاعته الكبيرة، وتجدر الإشارة إلى أن بيت الحبوبي قد تناص مع بيت لعنترة العبسي في قوله:[23]

هلا سألتِ الخيل يابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمِ

لكن الحبوبي عارض عنترة في مدى معرفة حبيبته بالحي، إذ يرى أنها تعرف هذا الحي المضري وهي تختلف عن عبلة التي لا تعرف عن حبيبها شيئاً لذلك دعاها لأن تسأل الخيل دلالة على شجاعته. وفضلاً عن عودة الحبوبي إلى الخيل في موضوعات الحرب والفخر نجده يعود إلى سلوكها الجماعي عندما تسري على شكل أسراب ليصف موقفاً عاطفياً له، ومن ذلك نقرأ قوله من (الخفيف):[24]

وسمتْ خيلُ أدمعي فتجارتْ عادياتٍ في موكبِ العشقِ ضبحا

نجد الحبوبي هنا يتكئ على مرجعيتين، الأولى قرآنية وهي رجوعه إلى قوله تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}[العاديات:1] ثم رجوعه إلى طريقة سريان الخيل، مضمراً نسقاً يوحي بأن الحزن المتأتي من خلال العشق يتماهى مع ما يتأتى من خلال الحرب من مصائب، فلم يستطع الحبوبي أن يكبت ألمه وحزنه؛ فها هي دموعه تنهمر راكضة في مواكب العشق، على الرغم من إبائه الذي حثه على إعطاء صفة التمنع لها، وذلك بسبب القيود التي تفرضها التقاليد الإجتماعية، فالنص يحمل في طياته نقداً لسلوك المجتمع في منع المحبين من اللقاء. ومن خلال هذا التشبيه يمكننا القول إن مجتمع الشاعر ميالٌ إلى الحرب؛ لأن تشبيه الدموع بالخيل يصدر عن طبيعة اجتماعية لا تفارق عدة الحرب. ونجد ذلك بصورة أوضح عندما يرجع الحبوبي إلى عنصر آخر من عناصر الطبيعة الحية وهو الأسد، فهو يرجع إلى سلوكه عند رسم صورة لشجاعة قومه والفخر بمنجزاتهم في هذا الصدد، ومن ذلك نقرأ قوله من (الطويل):[25]

فبتُ وحولي غلمةٌ لم تكــنْ إلى سوى الجودِ تصبو أو سوى السيفِ تألفُ
إذا غضبتْ يوم الكريهة خلتهـا أسوداً لها ظلتْ حشا الأرضِ ترجفُ

نلاحظ أن طبيعة المجتمع المحيط بالشاعر طبيعة تألف الحرب، لذلك اختار لهم ملك الحيوانات ليشبههم به، لِما له من قوة وشجاعة وبطش، وهذا يُظهر للمتلقي طبيعة الشاعر وقومه، ولعل ذلك بسبب ما يتعرضون له من قمع وظلم خلال الحقبة التي عاش فيها الشاعر نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

تبين لنا من خلال سير هذا المحور المتعلق بالطبيعة الحية في شعر السيد الحبوبي كونها مرجعية شعرية، أن الرجوع للطبيعة الحية يضمر أنساقاً تتمحور حول غربة الإنسان الحديث، وحول نقد سلوكات المجتمع حيال موقفه من الحب والمرأة، وموقفه من الآخر بشكل عام، فبرز لنا الصراع الدائر بين ذات الشاعر والآخر المجتمعي. كما تبين لنا أن هناك تضخما في الذات الاجتماعية لمجتمع الشاعر وذلك بحسب ما وقفنا عليه من رؤى الشاعر التي بالضرورة تعبر عن رؤى مجتمعه بنسبة ليست بالقليلة. وكل ذلك أدى إلى إحساس الشاعر بالغربة تجاه ما يحدث، إذ لجأ كثيراً إلى سلوكات طبيعية حية عبر من خلالها عن شعوره بالرفض لما يدور حوله.

المحور الثاني : الطبيعة الجامدة مرجعاً شعرياً عن الحبوبي

كما كان للطبيعة الحية أثر واضح على شعر السيد الحبوبي نجد أن الطبيعة الجامدة مثل مصدراً مهماً من مصادر رسم صوره الشعرية، فهو يرجع إلى هذا النوع من الطبيعة في مواضع كثيرة، وأن أهم ما رجع به الحبوبي إلى الطبيعة الجامدة هو البرق والمطر والقمر والبحر والنجوم والرياح والشمس. وعلى مستوى النبات عاد إلى الأراك والأيك والبان والاقحوان والأقاح والرند والعندم والجلنار والنرجس. ومن الملاحظ أن الحبوبي يرجع إلى عناصر طبيعية

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

واسعة العمومية وأكثر انتشاراً ومعرفة من قبل الكثيرين، ومنها البرق فهو عنصر طبيعي معروف ناتج عن اصطدام الغيوم، لكن الشاعر لا يقف حول حقيقة البرق بقدر ما يقف على شكله الخارجي، فهو يلجأ إليه – على سبيل المثال- عندما يروم تصوير ابتسامة الحبيب، ومن ذلك نقرأ قوله من (الرمل):[26]

مذ وميض البرق منك ائتلقا
ضربت (أسماء) وعد الملتقى
فيك لي ، لا بأثيلات النقـا

في هذا المقطع استعمل الحبوبي المجاز العقلي، إذ ذكر أسنان الحبيبة التي تشبه لون البرق، وأراد ابتسامتها الخاطفة للأبصار التي أظهرت أسنانها، بأسلوب خفي، ثم عاد وشبهها بأثيلات النقا وهو نوع من الشجر الرقيق. ولم تكن الأسنان وحتى الابتسامة هما الدافع لفرح الشاعر، إنما كانت الموافقة على اللقاء، تلك الموافقة المصحوبة بابتسامة. ولنا أن نتصور مجتمعاً يفرح فيه الإنسان هذا الفرح بلقاء حبيبته، فكم هو قاس على أفراده؟ لكن الشاعر لا يضمر هذا النسق دائماً فأحياناً نجده يعود إلى البرق لمجرد المبالغة في التشبيه، ومن ذلك قوله من (الرجز):[27]

تَبْسمُ عن أشنبَ لولا لمْعُهُ ما (لَقب) البرقُ اللموعُ مبسما

وتتضح المبالغة في هذا البيت في أن الحبوبي جاء بتشبيه مقلوب، فأسنان الحبيبة لا تشبه البرق، إنما البرق هو الذي يشبه أسنانها. وهكذا نجد الحبوبي يؤكد في مواضع كثيرة من ديوانه على مشاركة الأسنان والبرق صفة اللمعان وأنهما يتبادلان القوة فمرة يشبه البرق بالأسنان ومرة يشبه الأسنان بالبرق، ومن هذه الثانية قوله من (الهزج):[28]

تبسمْ وافضح البرقـا ودعْ قلبي وما يلقـــى
لعمرِكَ هل رأتْ عينٌ (سعيداً) في الهوى يشقى
ركبنا لجة البحـــر وعدنا بالهوى غرقـــى

يدعو السيد الحبوبي حبيبته للتبسم لتظهر جمال ثغرها لتفضح البرق من خلاله، وقد عكس الحبوبي حاله المتأزمة نتيجة العشق الذي أصاب قلبه، مستفهما كيف يكون (سعيدا) و شقياً في الوقت نفسه ــ تورية عن اسمه ــ من العشق وأهواله. وتمظهرت مرجعية البرق في قول الحبوبي عندما جعل منه حدا ادنى لجمال ثغر المحبوب، لأن تبسم حبيبة الشاعر جعلت البرق خجلا ومفتضحا لأن لمعان مبسمها أكثر وأجمل من لمعان البرق الذي ارتبط بالابتسامة في شعر الحبوبي، أما إذا أراد الحديث عن صدق المواعيد والأمل في تحققها فإنه يلجأ إلى عنصر آخر من عناصر الطبيعة مرتبط بالبرق بطريقة ما، ألا وهو المطر. وفي صدد ذلك نقرأ للحبوبي قوله من (الرمل):[29]

فيكَ ميعادُ التدني والوصـالْ
واقتضاء الدَينِ منْ بعدِ المطالْ
وملاهينا بربواتِ الحجـــالْ
فرعاك اللهُ مغنىً وسقـــاكْ واكفَ الغيثِ بهامٍ هتـــنِ

يرسم السيد الحبوبي لوحة جميلة يصور فيها مواعيد القرب واللقاء وقضاء دَين له عند المحبوب بعد مماطلة ومنعة مذكراً باللهو وانس اللقاء، داعيا للحبيب بالبقاء والديمومة وكثرة الخير المتتابع المتمثل بـ (الغيث) المستمر بالهطول. وقد رجع الحبوبي إلى المطر باعتباره مصدراً للخير والأمل من خلال دعائه للمحبوب على المستوى الخاص، ولعله على المستوى العام يأمل أن يعم الخير بلاده، فهو يتأمل لربوع بلاده خيراً يحل بها ويبشرها بذلك، إذ يقول من (الرمل):[30]

وترى منتظمَ الطلِ السقيـــطْ فيه بطنُ الواديينِ اتشحـــا
والصبا قد حملتْ عرفَ الخليـطْ ولذا كانتْ لقلبي أروحـــا
فصلتْ هذي ، وذياكَ يخيـــطْ مطرفِ الزهرِ فيكسو الأبطحا
إذ حدا الرعدُ يسوق المزنـــا مثقلات كالظعين المدلـــجِ
ودعا ، عند محاني المنحنـــى: يا ربوعُ ابتشري وابتهجـي

لعل هذه اللوحة الفنية المتحركة تذكرنا بلوحة المطر في معلقة امرئ القيس، لكن مطر امرئ القيس كان مدمراً كما هو مطر السياب لاحقاً، بينما نجد مطر الحبوبي يرسم لوحة لحياة قادمة أجمل، حيث رجع إلى المطر الخفيف وهو ينزل إلى بطن الوادي وريح الصبا تحمل عطراً فواحاً وطيباً ومنعشاً في الوقت نفسه، وريح الصبا والطل النازل رسما لوحة داخلية من الزهر كست بها الأرض بحلة جميلة، وقد ختم الحبوبي هذا المقطع من الموشحة بوصف الرعد وهو يسوق السحاب المثقل مثل حادي الإبل مشبها إياه بالهودج الذي يحمل المرأة على الناقة، داعيا الربوع للابتهاج

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

والتبشر لسقوط المطر الكثيف، لقد تعددت مرجعيات السيد الحبوبي في هذا المقطع حيث اتكأ على (الطل، الصبا، الرعد، المزن) تلك العناصر التي جعلت من اللوحة لوحة رومانسية بامتياز، حيث التصاق الشاعر بعناصر الطبيعة في الفرح والحزن، فالحبوبي على سبيل المثال يلجأ إلى المطر عندما يبالغ في الحزن، ومن ذلك قوله من (الطويل):[31]

تقولُ فتاةُ الحي ـ وهي عليمــةٌ بأنيَ لا أسلو: أتسلو الهوى بعــدي ؟
فقلت ، ولي قلبٌ يذوبُ ومدمعُ يصبُ كمنهلِ القطارِ على خـــــدي
أيسلو الهوى صبٌ يؤرقه الهوى على قربِ من يهوى؟ فكيفَ على البعدِ

يدفعنا حدسنا إلى أن مركز البناء في هذا المقطع هو ثنائية الموت والحياة، إذ لا يأمن الإنسان الشر حتى إذ كان في مركز الخير، فعلى الرغم من أن الحبيبين في لقاء ينبغي أن يكون ممتعاً إلا أنها سألته عن موقفه بعد فراقها، وقد عمل هذا السؤال على تغيير اتجاه النص من نص واقعي إلى نص رومانسي ينظر إلى الأشياء متوقعاً موتها، وهذا ما دفع الشاعر إلى اللجوء إلى الجانب التشاؤمي للمطر عندما وصف دموعه به، فحوله من فرح كما لاحظنا في المقطع السابق، إلى حزن؛ لذلك يمكننا القول بأن الحبوبي يستدعي المطر في القضايا الكبيرة فهو يختار إحدى صفاته ويوظفها في لوحاته، أما إذا أراد الحديث عن وسامة الحبيب ونقائه فإنه يستدعي عنصراً آخر من عناصر الطبيعة يمتلك تلك الصفات، وهو هنا القمر الذي طالما شغل مساحات واسعة في الشعر العربي لاسيما في موضوع الغزل. فكما يخجل البرق من بياض أسنان الحبيبة نجد القمر أكثر خجلا حين يرى وجهها، ونكشف عن ذلك في قراءتنا لقوله من (الرمل):[32]

وغدا البدر إليه يستشيـــــط رام أن يفضحه ، فافتضحــا
أخجل البدر ، فذا الطل السقيط عرق من وجهه قد رشحهــا

ترتبط مرجعية القمر عند الشاعر عادة بغرض المدح عندما يريد وصفه بالعلو والرفعة أما في الغزل فإنه يشبه جمال الحبيبة بضوء القمر، وفي قول الحبوبي نوعا من المغالاة التي دأب عليها بعض الشعراء، عندما أظهر القمر بموضع الغاضب الملتهب الذي أراد أن يتباهى بجماله أمام حبيبة الشاعر، إلا أنه صدم بذلك الجمال فصار خجلاً من خروجه وتباهيه، ونتيجة لهذا الخجل تعرق وجهه طلالاً ، وقدر رجع الحبوبي لجمال القمر وبهاء صورته ليصف من خلاله جمال الحبيبة فهي عند الشاعر أجمل من القمر، فهو غالباً من يشبه الحبيبة بالقمر، حتى أنه في مواضع كثيرة يذكرالقمر قاصداً الحبيبة، ومن تلك المواضع قوله من (الرمل):[33]

لست أنفك على طول الدهور لهجا في ذكر أقمار حسان

نجده هنا قدم لنا الحبيبة من خلال استعارة تصريحية ذكر فيها المشبه به وحذف المشبه، لكنه استعمل صيغة الجمع للدلالة على مراحل عشقه وتعدد تلك المراحل الكثيرة، وذلك من خلال قوله (طول الدهور)، ليوحي باستمرارية العشق والتذكر والولع، مفيداً من صفات القمر، فهو كثيراً ما يجعل الحبيبة أجمل من القمر، وربما جعل القمر صورة منعكسة لها، ومن ذلك قوله من (الخفيف):[34]

قابلت وجهك السماء فأبدت صورة البدر من سناك انعكاسا
وتمنى الهلال لو صيغ طوقا لك ، فاستام حليك الوسواســا

يرى الشاعر أنه لا يوجد بدر حقيقي في السماء إنما هو صور منعكسة في المرآة (السماء) لوجه حبيبته، أي أن الحقيقة الوحيدة لديه هي وجه حبيبته، ولعل هذا المعنى يذكرنا بقول الشاعر:[35]

رأتْ قمر السماء فأذكرتني لياليَ وصلها بالرقمتيـن
كلانا ناظر قمراً ولكـــن رأيت بعينها ورأت بعيني

فالشعر هنا يرى في وجه حبيبته القمر الحقيقي بينما كانت هي تنظر إلى قمر مجازي. لكن الحبوبي يضيف أن الهلال الحقيقي تمنى أن يكون مكان الطوق الذي يلف رقبة حبيبته التي طالما وصفها بصفة من صفات القمر الشكلية، حتى أنه يرجع إلى القمر في غرض المدح متكئاً على صفة أخرى من صفاته وهي الهداية، ومن ذلك نقرأ قوله مهنئاً أحد أصدقائه من (الرمل):[36]

قارنت بدر الهدى شمس السعود فتهانينا بنظم الأنجـــم
واستنارا بسناء وسنـــــــــا فأضاءا غسق الليل الدجي
مذ أتت تطوي الظلام المردنـــا تتحرى من أهدى منهـــج

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

رجع الحبوبي إلى صور متعددة من الطبيعة الجامدة في هذا المقطع من الموشحة ، فوظف صورة البدر وجماله ليصف من خلالها جمال الممدوح وعلو شأنه في استعارة جميلة عندما وصفه بـ (بدر الهدى) ووصف قرينته بـ (شمس السعود) مهنئا إياهم بنظم الأنجم ، وكيف أن سنا البرق يضيء عليهم أول الليل وآخره، فالقمر من العناصر الطبيعية التي تحضر في غرض المدح غالباً، إذ هناك عناصر طبيعية اختصت بأغراض شعرية معينة، ومن تلك العناصر الشمس على سبيل المثال، فهي من جانب مجاورة للقمر في اللغة فما أن تذكر حتى يذكر معها القمر، ومن رجوع الحبوبي إليها نقرأ قوله من (الرمل):[37]

من دعا وجهك شمسا إنما أنصف الشمس وما أنصفه

نلاحظ هنا المبالغة التي اعتاد عليها الحبوبي، إذ إن من يصف محبوبه بالشمس إنما ينصف الشمس، لأن حبيبته أشد من الشمس جلاء ومكانة سامية باعتبارها مصدر الضوء وجماله البهي، فقد جعلها مقياساً للجمال وليست الشمس، فنراه يغالي في الوصف مرة أخرى عندما يجعل وجه حبيبة الشاعر أكثر بهاء وضياء من الشمس ، ويرى أن الناس لم تنصفها عندما وصفت حسن ذلك الوجه بها، إنما الإنصاف جاء إلى الشمس وكأن التشبيه في هذا الموضع جاء مقلوباً. وليس بعيداً عن هذا الموضوع نجد الشاعر يلجأ إلى الشمس عندما يروم وصف لون الخمرة الأصفر، وفي ذلك يقول من (البسيط)[38]

شمس الحميا تجلت في يدي ساقي فشع ضوء سناها بين آفــاق
سترتها بفمي كي لا تنم بنـــــا فأججت شعلة ما بين آماقي

يعد افتتاح الحبوبي بوصف الخمرة في مقدمات قصائده دلالة واضحة لتأثره بشعراء العصور السابقة وخاصة العصر العباسي الذي عرف من خلاله هذا النوع من الافتتاح، وتشبيه الخمرة بالشمس تشبيه سبقه إليه كثير من الشعراء، إذ يعد هذا التشبيه من التشبيهات الشكلية تتحدد باللون، لكن هناك مسألة أخرى يمكن أن نقف عليها، وهي أن كلاهما يمنح الدفء للإنسان، وبذلك لا يكون التشبيه شكلياً فقط. ففي البيتين السابقين نجد الشاعر يرجع إلى لون الشمس وإشعاعها وحرارتها وكذلك جلاؤها الذي نقرأ بصدده قول الحبوبي من (الخفيف) :[39]

لاح كالشمس مشرقا ، وسقاني من لماه السلاف من غير عصر

إذ تمظهرت مرجعية الشمس عند الحبوبي عندما شبه بها المحبوب ضافياً عليه صفة الإشراق ـ وهي صفة تختص بالشمس دون غيرها ـ فجمال الحبيب وسطوع نوره يشبه جمال الشمس واشراقها، وقد استقى الشاعر من لما ذاك الحبيب الخمرة، علماً أن "تصوير الخمرة بريق المرأة أو العكس يعد من الموروث لدى شعراء العرب وهي صورة قديمة دأب على استخدامها شعراء العصور التي سبقت السيد الحبوبي وخاصة العصر العباسي"[40] لكن الحبوبي أكثر منها فلم يدع صفة من صفات الشمس إلا وشبه محبوبه بها، فحول علو الشمس نقرأ قوله من (الطويل):[41]

هي الشمس مرآها بعيد وان تكن تخيلت الأيدي تنول شعاعها

يعكس الحبوبي من خلال هذا القول مدى البعد وعدم التلاقي بينه وبين من أحب مشبها إياها بالشمس التي ترى من بعيد لشدة ضيائها وسطوع ضوئها حتى يخيل للكثير إنها سهلة المنال إلا أنها متمنعة عن اللقيا، ولعل هذا الإمتناع الذي سبب الفراق لم يتأت من رضاها، فربما تكون مجبرة على ذلك، وربما يكون هذا الوصف عاماً يشمل المرأة بشكل عام، وبذلك نقف على النسق المضمر في هذا البيت الذي يخفي نقداً للعادات والتقاليد، مما يضطر الشاعر إلى الإفادة من وسائل الحفاظ على التواصل بين المحبين، ولعل من تلك الوسائل الرياح، التي يرجع إليها الشاعر عندما يشتاق إلى شم عطر الأحبة أو نقل ريحه اليهم، ومن ذلك قوله (الرمل):[42]

فإذا ريح الصبا هبت قريب طار قلبي خشية من قصفه

يستذكر الحبوبي هوى المحبوب وما يحمله من شوق ولهفة إلى لقائه عندما تقترب منه رياح الصبا حاملة معها طيبة الريح التي تتصف بها حبيبته، فقد كانت الرياح بوصفها وسيلة للتواصل الذي منعته التقاليد الإجتماعية حاملة لسمات المحبوب وصفاته خاصة إذا ما عرفنا ما لهذه الريح من نسمات طيبة تثير العاشقين ومنهم الشاعر، حتى أن الشاعر يطلب من الرياح بإصرار أن تفعل ذلك، وفي هذا الصدد نقرأ قوله من (الرجز):[43]

بالله يا ريح الصبا تحملّـــــــي تحية لم ترض غير الشمـــأل
تطيب في نشر الهوى ، ترغب عن نشر الخزامى ، وشذا القرنفـــل

إذ أقسم الشاعر على الريح أن تتقذه مما يعانيه من أشواق فرضتها عليه الظروف الإجتماعية، فهو يتوسل إلى ريح الصبا أن تنقل تحيته على حبيبته التي تبتعد عنه. علماً عن هذه الصورة الشعرية جاءت مفعمة بعناصر الطبيعة وكأنها لوحة طبيعية رومانسية فنجد (ريح الصبا) ـ طيبة النسيم ـ وبـ (الخزامى) و(القرنفل) بما ـ يحملانه من طيب

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

الرائحة ـ من أركان الصورة لديه. لكن الشاعر يريد للحب والعشق أن ينتشر بدلاً عن نشر الخزامى والقرنفل، والصورة التي جاء بها الحبوبي لا تخلو من الغرابة عندما يتمنع عن نشر الريح الطيبة التي يتصف بها هذين النباتين، مما يدلل على أن الفكرة الرومانسية التي تأثر بها الشاعر لم تنضج لديه بعد. أو لعل سبب هذه الغرابة أن الشاعر كان يحاول الرد خفية على قول امرئ القيس: (نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل).

أما إذا ما رام الحبوبي المدح لصفة الكرم والعطاء نجده يرجع إلى عنصر من عناصر الطبيعة الجامدة يتصف بتلك الصفات، وهو هنا (البحر) الذي غالباً ما يستدعيه الشاعر عندما يريد وصف ممدوحه، بالكرم والعطاء والسعة، ومن ذلك قول الحبوبي من (الرمل)[44]

بحر جود في ورود ، وصـــــدور
عب حتى جاز أوكار النســـــور
تغرق الشعرى به ، وهي العَبـور
وتسامي سمك فيه السمـــــــاك سايغ مورده ، لم يأجـــــن

وهنا نجد الحبوبي يبالغ في إضفاء الصفات على ممدوحه، فعطاؤه من السعة بحيث لا يدانيه أحد، حتى أن نجم الشعرى المعروف بضخامته يغرق في بحر جوده، فجود الممدوح يصل إلى عنان السماء، وسواء كان من يطلبه قادما أم ذاهباً فعطاؤه يصل إليه بسبب اتساعه، فقد عبر عن ذلك الشاعر بقوله (في ورد وصدور). ومن الملاحظ أن الشاعر يرسم لوحة بانورامية تشترك فيها عناصر الطبيعة الجامدة والحية (البحر، السماء، النسور، السمك، النجوم) ليعبر عن مدى اتصاله بالطبيعة حتى أن الممدوح تحول إلى عنصر من تلك العناصر، إذ غالباً ما يشبه الشاعر ممدوحة بتلك العناصر أو أحدها، فمن تشبيهه بأحدها نقرأ قوله وهو يشبه ممدوحين بالنجوم من (الرمل):[45]

أنتما ،في افقها ، كالفرقديـــن
كثر النجم ، وكانا أوحديـــــن
لا يواخي (حسنا) إلا (حسين)
بالتزام لا يوزيه انفكـــــــاك أبد الدهر ، وعمر الزمـــــن

شبه السيد الحبوبي ممدوحيه الإمامين (الحسن والحسين) عليهما السلام بالفرقدين (وهما نجمان قريبان من القطب الشمالي) يُهتدى بهما. وعلى الرغم من كثرة النجوم إلا أن لهما خصوصية عند العربي عندما يجوب الصحراء تائها في قفارها. وقد تمظهرت مرجعية هذين النجمين عند الحبوبي عند وصف الإمامين بهما، لأن الإمامين رمز الهداية للأمة.

ومن عناصر الطبيعة الجامدة التي رجع إليها السيد الحبوبي عنصر أكثر التصاقاً بالنفس والعاطفة الإنسانية ألا وهو النبات بمختلف فروعه، إذ معه يشعر الإنسان بالألفة من خلال ظل بعض أنواعه الذي يحمي من الشمس وعطر بعض أنواعه، ولعل الأكثر تمثيلاً في شعر السيد الحبوبي هو شجر الأراك. ويرجع السيد الحبوبي إلى الأراك عندما يذكر المكان وارف الظل، وكذلك يفعل مع الأيك، ومن رجوعه إلى الأراك قوله من (الرمل):[46]

يا مقيل السرب في ظل الأراك بين سلع والكثيب الأيمـــــــن

نجد الشاعر هنا يعود إلى الأراك ليوجه خطابه إلى ممدوحه مشبهاً إياه بالشجرة الضخمة التي تفيء على من تحتها، وهو هنا يحدد مكان تلك الشجرة وهو بين (جبل سلع) و أحد المرتفعات التي تقع على يمين الجبل، وبهذا يوهم المتلقي بالصدق وكأن الواقعة حقيقية، لكي يزيد من تأثير الشعر على المتلقي من خلال رسم صورة مكانية محددة الموقع، راجعا فيها إلى الطبيعة التي تؤطر وتتخلل تلك الصورة، فهو في أحيان كثيرة يكثف مفردات الطبيعة في صورة بانورامية حافلة بعناصر الطبيعة جاعلاً من شعره لوحة فنية مرسومة بكلمات ملونة، ومن ذلك نقرأ قوله من (الرمل):[47]

في ربوع زانها وشي الربيـــــع
فاستقام الأيك ، والطلح الضريع
ولألبان الحيا البان الضريـــــع
اذ سقاه النوء منه مزنـــــــا قد توالت بضروع حفـــل

نجد الرضي قد حدد ابتداءً زمان هذه الصورة وهو فصل الربيع متكئاً في البداية على معرفة المتلقي بهذا الفصل لكي يساعده في إكمال الصورة والتفاعل معها، ثم بعد ذلك وصف أنواع من الشجر التي استقامت في قلب الصورة وهي الأيك والطلح والبان، ثم عرج على المطر الذي يسقي هذه الأشجار، مما جعل الطبيعة الجامدة تتفاعل مع الحية لتنبت

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

الخير ويحل الرخاء. أما إذا أراد استعارة سلوك نوع من الشجر وإسقاطه على الحبيبة فنجده يتحدث مع الشجرة قاصداً المرأة، ومن ذلك قوله من (البسيط):[48]

مالت ، فقلت لها : يا بانة اعتدلي وإن جبلت على التعاطف والميـــل

استغل الحبوبي هنا صفة من صفات شجر البان الذي ينماز "بلينه واعتداله" فرجع إليه مشبها به الحبيبة لاعتدال قوامها و تمايلها الناتج عن الغنج التي عليه. وعلى الرغم من أن هذا الصفة محبوبة في المرأة إلا أن الشاعر يطلب منها أن تتخلى عنها وتعتدل، ولعل ذلك يظهر لنا نسقاً مضمراً في أن الشاعر قد دخل في صراع بين فرديته التي ترغب في شيء ما واجتماعيته التي تجعله يرغب عن ذلك الشيء.

ومثلما يرجع الرضي إلى الأشجار الضخمة فإنه يرجع إلى أشجار الورود والأزهار التي تنماز برائحتها الشذية، فيفيد منها في رسم صوره الحسية الشمية.

أما ما غلب على شعره في الرجوع الى النبات فهو رجوعه الى أنواع كثيرة من الورود والأزهار لاسيما في غرضي المدح والغزل، ومن ذلك نقرأ قوله من (الرمل):[49]

وكساك الروض من وشي الأقاح
مطرفا تصقله كف الريـــــاح
انما الزهر جلابيب البطـــاح
كم حكى منسوجه لما كســـاك وشي مصنــوع (بصنعا اليمن)

هذا المقطع هو من موشحة في مدح أحد أصدقائه، رجع من خلاله الحبوبي إلى نبات (الأقاحي) بلونه الأبيض الجميل كاسياً الأرض بحلة منقوشة من أزهاره، مشبها الزهر بثوب كسيت به الأرض، وهذه الحلة حاكية حلة الممدوح المنسوجة في اليمن، وهو تبث على الحاضرين عطرها مثلما تبث الطبيعة عطرها الخالد على عشاقها، بمعنى أن الشاعر يريد للأنسان أن يكون مثل الطبيعة تمنح جمالها الحاضر للإنسان من دون منة عليه.

وقد ركز الحبوبي على هذه الصور الطبيعية متكئاً على حضورها الفاعل في الحياة الانسانية وعلى أهميتها، فهو يمزج بين الطبيعة الجامدة مكحلاً عناصرها بعناصر الطبيعة الحية في لوحة يندر مثلها، ومن ذلك نقرأ له من (الرمل): [50]

وتغنى ، في رباك ، العندليب
يرقص الغصن له وهو رطيب
وثراك اختال في برد قشيـب
من أنيق الورد والرند يحـاك فيوشي نسجه بالسوســـن

نلاحظ في هذه اللقطة المتحركة أن العندليب على الأغصان منتشيٌ، والأرض قد وشيت بالورد والرند. فلا يوجد مكان في اللوحة يخلو من عنصر طبيعي يمنح اللوحة خلودها، فالرند "برائحتة الزكية ولونه الأبيض"[51] يزخرف ثرى ربى الممدوح وترافقه أنواع من الورود والأغصان الرطيبة تتمايل على صوت العنادل بصوتها الأخاذ الشجي".[52] فالجبوبي كثف اتكائه على عناصر الطبيعة في هذه اللوحة من خلال زج عناصر الطبيعة مع بعضها بينما يقف الإنسان على حافة المشهد ولم يدخل إطار اللوحة إلا من خلال ضمير المخاطب (الكاف) في قوله (رباك)، إذ نسب المكان بجماله الأخاذ للممدوح، فالحبوبي قد اعتاد على نسبة عناصر الطبيعة للإنسان تعسفاً، ومن ذلك قوله في وصف الخمرة والنديم، من (الرمل):[53]

من فم الأبريق لما انسكبـــت شربتها مقلتي قبل فمـــي
أترى كفك منها اختضبـــت بدم العنقود ؟ لا ، بل بدمي
هي من نار ، اذا ما التهبت أحرقت بالكف زهر العندم

عُرف الحبوبي بوصفه للخمرة ، وما هي عنده إلا رمز دفعته إليها "روح المرح فخاض من خلال وصفها تجارب خيالية ساقها إليه إحساسه المرهف دون الحقيقة، وبذلك خالف الشعراء الذين سبقوه والذين عاصروه حيث كانت أشعارهم تعكس تجاربهم التي عاشوها"،[54] فهناك شعراء كثر امتازوا بأغراض أو نسبوا إلى أنفسهم صفات كانوا بعيدين عنها كالشجاعة مثلاً، وفي وصف الخمرة أيضا الموضع الذي استشهد من خلاله الباحث نجد الحبوبي لم يطرق بابها وقد وصفها بأدق الأوصاف "والحق أن الحبوبي كان يفقد سراً من أسرار شعره، ... ذلك السر هو التجربة الفعلية إذ أغلب قصائد الحبوبي كانت تعبر عن تجارب لم يعشها هو بل قلدها وحاول تخيلها".[55] وقد أبدع الحبوبي في وصف الخمرة وهي تنسكب من فم الإبريق، ولفرط جمال منظرها احتستها عيناه قبل فمه ، وبسبب من

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

شغف الشاعر بالخمرة والساقي، فقد اختلط عليه خضيب يدي ساقيها، لذلك نجده يتساءل: أمن الخمرة تلونت تلك الأنامل؟ والشاعر هنا لا ينتظر جوابا فالإجابة عنده (لا) إنها من دمي، والخمرة عند الحبوبي نار يكتوي بها من يحتسيها وتحرق كف من يسقيها. ولعل قرينتنا على أن هذه التجربة ليست شخصية هي أن الشاعر اتكأ على تجارب سابقة في هذه المعنى، منها على سبيل المثال للحصر قول الحصري يصف نديما من (الوافر):[56]

أقول له وقد حيا بكــأس لها من مسك ريقته ختــام
أمن خديك تعصر قال كلا متى عُصرت من الورد المدام

فهو في هذا المعنى يرجع إلى قول أبي نواس الذي لا يخفى على أحد أنه هيمن على هذا الموضوع وعده فلسفة له في العصر العباسي الأول. وقد أفاد الحبوبي من هذا المعنى من لون زهرة العندم الأحمر الذي تخضب به أصابع الحسناوات وأكفهن، وهو ذاته الذي خضب كف الساقي، وهو بذلك يذكرنا بقصيدة يزيد بن معاوية الميمية التي يقول في أحد أبياتها من (الطويل):[57]

ولما تلاقينا وجدت بنانها مخضبة تحكي عصارة عندم

إذ بنيت هذه القصيدة على هذه الصورة التي ترتكز على عصارة العندم في رسم صورة الخضاب الذي يعده الشاعر دمه، ويقول يزيد في هذا الصدد من القصيدة ذاتها:[58]

خذوا بدمي ذات الوشاح فإنني رأيت بعيني في أناملها دمي

ونحن إذ نستعرض هذه الأبيات لسنا بصدد الدفاع عن السيد الحبوبي ونفي تناوله للخمرة، لكن أمانتنا العلمية فرضت علينا مناقشة تجربته في هذا المجال، وقد وقفنا فيما مضى تأثره بمن سبقة من الشعراء.

وفي موضع آخر نجد الشاعر يجعل عناصر الطبيعة تتفاعل فيما بينها لتنتج لنا لوحة جميلة، ومن تلك العناصر (الآس والجلنار والنرجس) فـ "الآس: الرند لونه أخضر ، وزهره أبيض، له رائحة طيبة "[59] ، والجلنار : "معروف ـ وهو زهر الرمان"[60] ، والنرجس: "من الرياحين، معرّب ، ويقال النرجس معروف، تشبه به العيون، وهو دخيل".[61] وقد عاد الحبوبي إلى هذه الصفات في لوحات رسمها منها قوله من (الرمل):[62]

زان صدغ الآس خد الجلنــار فيك يا مصبي عيون النرجسي
أي لونين : اخضرار واحمرار وشعا فيك ، وثغر ألعــس
فرياحين ، فورد ، فعقــار جمعت ألوانها في مجلــس
قل لمن أصبح فيها مدنفــا وغدا من وجدها فــي أرق
قم ، ونل ما شئته مرتشفــا وتروح ان تشأ وانتشــق

إن للأزهار بألوانها الزاهية وعطورها الطيبة أثر واضح في شعر الحبوبي فلا تكاد تخلو موشحة من موشحاته من مرجعيات هذا النبات ، متكئاً عليها في رسم لوحات جميلة في الوصف والغزل، ولعل التكثيف باستخدام الأزهار يشي برقة المشاعر لديه وحسه المرهف. ففي هذه الموشحة رجع إلى الآس ـ مطلقا الكل وأراد الجزء ـ مشبها به وجه الحبيب، واصفاً خديه بزهر الرمان ذو اللون الأحمر، وعيونه بالنرجس راسماً صورة جميلة للحبيب في حال اختلاط اللونين الأحمر والأخضر يضاف إليهما سمرة الشفاه لدى الحبيبة. وهذه الألوان والرياحين والخمرة بكل أنواعها جمعت في مجلس الشاعر، ومن خلال هذا الجو المفعم بالنشوة يدعو الشاعر إلى التمتع بما في المجلس من طيب طعم ورائحة دعوة شغلت مساحة كبيرة من ديوانه، فهي دعوة إلى التمتع بالحاضر من خلال التمتع بجمال الطبيعة بنوعيها الجامدة والحية. فكما ربط في المثال السابق بين الآس والجلنار والنرجس نجدها في المثال الأتي يربط بين الآس والريحان والنرجس وهو قوله من (السريع):[63]

طرز خديك العــــذاران تطريزة الورد بريحــــان
خداك من ورد ، ومن نرجس عيناك ، والقامة من بــان

رجع الحبوبي إلى أنواع النبات كالورد والنرجس والبان ليصف من خلالها الحبيب، فقد شبه الحبوبي خدي الحبيب بالورد وعينيه بالنرجس لجمالهن، وشبه قامته المعتدلة بالبان الذي عرف باعتدال سيقانه.

كان للطبيعة الحية والجامدة أثر واضح على الصورة التي يرسمها السيد الحبوبي، فهو يلجأ إلى عناصر الطبيعة في مختلف أغراضه ولاسيما المدح والغزل مستغلاً ما تمنحه تلك العناصر من طاقة تساعد الشاعر على الوصول إلى

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

معناه جاعلاً منها معادلاً موضوعياً معبراً عما يستعصي على اللغة المعجمية، فوجدناه يستثمر فاعلية تلك العناصر لا ليؤطر لواحتها بل ليجعل من تلك العناصر محتوى اللوحات وقلبها.

الهوامش

(1) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي، جمع زياداته: محمد الحبوبي، صححها وشرحها وترجم لأعلامها ورتبها: عبد الغفار الحبوبي، الدار الوطنية للإعلان والتوزيع، بغداد، سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث، وزارة الثقافة والإعلام، 1980م. : 309
(2) م . ن : 350
(3) م . ن: 383
(4) شعر محمد سعيد الحبوبي (دراسة فنية) رسالة ماجستير ، منى جابر مجبل كلية تربية بنات ، جامعة الكوفة ، 1420هـ ، 1999م : 23.
(5) ديوان السيد الحبوبي : 378
(6) ينظر : شعر الطبيعة بين كشاجم وابن وكيع التنيسي (دراسة فنية موازنة) رسالة ماجستير ، حسين كزار صلال ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، مصر 1437هـ ، 2016م /106.
(7) ينظر : الحمام في الشعر العربي ، علي أبو زيد ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1، 1996م :61.
(8) ديوان السيد الحبوبي : 336
(9) م . ن : 375
(10) حياة الحيوان الكبرى ، الديميري ، دار الكتب العلمية ،ط2 بيروت ، (ب.ت): 351/2.
(11) ديوان السيد الحبوبي : 378
(12) م . ن: 150
(13) م . ن: 189 - 190
(14) م . ن: 388
(15) ديوان الشريف الرضي : 2 /93
(16) ديوان السيد الحبوبي: 389
(17) م . ن: 152
(18) ينظر : حياة الحيوان الكبرى :38/1.
(19) ديوان السيد الحبوبي : 272
(20) ينظر : حياة الحيوان الكبرى :184/2.
(21) ديوان السيد الحبوبي : 396
(22) م . ن: 290
(23) شرح ديوان عنترة: 171
(24) م . ن: 298
(25) م . ن: 379
(26) م . ن: 147
(27) م . ن: 368
(28) م . ن: 395
(29) م . ن: 146
(30) م . ن: 158
(31) م . ن: 394
(32) م . ن: 160
(33) م . ن: 178
(34) م . ن: 301
35 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر- بيروت ، 1968 : 226/5
(36) م . ن: 168

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616 - 3810
العدد (42) أيلول - سبتمبر 2019
JALHSS
www.jalhss.com

(37) م . ن: 220
(38) م . ن: 272
(39) م . ن: 374
(40) ينظر : شعر محمد سعيد الحبوبي (دراسة فنية) :105.
(41) ديوان السيد الحبوبي : 355
(42) م . ن: 162
(43) م . ن: 346
(44) م . ن: 151
(45) م . ن: 154
(46) م . ن: 145
(47) م . ن: 229
(48) م . ن: 396
(49) م . ن: 146
(50) م . ن: 146
(51) ينظر : المعجم المفصل في الأشجار والنباتات في لسان العرب ، اعداد : كوكب دياب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1421،1هـ ، 2001م : /126– 127.
(52) ينظر : م .ن :216 .
(53) ديوان السيد الحبوبي : 206
(54)
(55) ينظر : شعر محمد سعيد الحبوبي (دراسة فنية) ،/ 43.
(56) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ)، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط1، 1986 م: 5/ 382
(57) تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود بن عمر الأنطاكي، المعروف بالأكمه (المتوفى:1008هـ)(ب.د) (ب.ت) : 1/ 187
(58) م . ن : 1 / 187
(59) ينظر :المعجم المفصل في الأشجار والنباتات في لسان العرب /15
(60) (60) ينظر :م . ن : 59.
(61) ينظر : م .ن /247.
(62) ديوان السيد الحبوبي : 221
(63) م . ن : 275

المصادر

1. الحمام في الشعر العربي ، علي أبو زيد ، دار المعارف، ط1 ، القاهرة 1996م.
2. حياة الحيوان الكبرى ، الديميري ، دار الكتب العلمية ، ط2، بيروت (ب.ت).
3. ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي، جمع زياداته: محمد الحبوبي، صححها وشرحها وترجم لأعلامها ورتبها: عبد الغفار الحبوبي، الدار الوطنية للإعلان والتوزيع، بغداد، سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث، وزارة الثقافة والإعلام، 1980م.
4. شعر الطبيعة بين كشاجم وابن وكيع التنيسي (دراسة فنية موازنة) رسالة ماجستير ، حسين كزار صلال ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، مصر 1437هـ ، 2016م.
5. شعر محمد سعيد الحبوبي (دراسة فنية) رسالة ماجستير ، منى جابر مجبل كلية تربية بنات ، جامعة الكوفة ، 1420هـ ، 1999م.
6. المعجم المفصل في الأشجار والنباتات في لسان العرب ، اعداد : كوكب دياب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1421،1هـ ، 2001م.

DOI: 10.33193/JALHSS.42.5